كلمة د. نادين عبّاس

حقيبة إفرام البعلبكي.. فلسفة المعلِّم

نلتقي اليوم بمناسبة صدور كتاب الحقيبة للدّكتور إفرام البعلبكي. والمناسبة جميلة، ولا سيّما أنّها تتزامن مع ذكرى ميلاده في 31 تشرين الأوّل، أي بعد 4 أيّام. فيكون ميلاد هذا الكتاب استمرارًا لفكره وأثرًا يسفيد منه الطّلّاب والباحثون.

الكتاب يضمُّ مجموعةً من الأبحاث في الفلسفة اليونانيَّة والفلسفة العربيَّة الكلاسيكيَّة والفكر العربيّ الحديث والمعاصر. سأتكلّم على المنهج الّذي اتّبعه "المعلِّم" في الكتاب، وعلى مفهوم الفلسفة عنده.

يعتبر الدّكتور البعلبكي أنّ الموضوعيّة وقراءة النّصّ في سياقه هما من أهمّ شروط العلم. والموضوعيّة تتطلّب الشَّكّ في الأبحاث العلميَّة، أي الشّكّ في ما قيل وكُتب، وفي ما جاء في أمّهات المصادر. فجبران ليس فيلسوفًا ولا مصلحًا اجتماعيّا بخلاف ما يصفه كثيرون. وكذلك فأمين الرّيحاني الملقّب بفيلسوف الفريكة لم يبدع فلسفةً، إذ لا نجد لديه إلّا فلسفة الآخرين... ولا بدّ من أن يستعين القارئ بالمخزون الثّقافي الّذي يملكه عند قراءة النّصّ في سياقه التّاريخيّ والفكريّ. وهذا الأمر، وإن كان مفيدًا فهو مربك، "لأنّك لن تصدّق شيئًا، وعليك أن تبحث بنفسك عن كلّ شيء"، على حدّ تعبير البعلبكي. ومنهجه هذا قام بتدريب طلّابه عليه طيلة سنوات تدريسه في الجامعة، ولا سيّما طلّاب الفلسفة منهم. فنبّههم إلى أهمّيّة الشّكّ والموضوعيّة في أبحاثهم، وإلى أنّ العلميّة في دراسة الآداب غير ممكنة؛ فالاستنتاج والنّقد والتّحليل الّذي يقوم به الباحث سيتأثّر بلا شكّ بثقافته وفكره. ولذلك فجلّ ما يطلبه من طلّابه هو التزام الصّدق والوضوح في ما يرَونه لا أكثر.

يعرّف الدّكتور البعلبكي الفلسفة بأنَّها منهجٌ عقلانيٌّ علميٌّ صارمٌ في البحث عن الحقيقة، أساسه التَّحليل والنَّقد، من دون التَّأثُّر بأيّ سلطة دينيَّةٍ أو مدنيَّةٍ أو أدبيَّة. وهذا التّعريف يتعارض مع تعريف كمال الحاج للفلسفة في كتابه فلسفة اللغة. (مع الإشارة إلى أنّ البعلبكي أفرد مبحثًا في الكتاب للكلام على فلسفة اللغة عند كمال الحاج). يقول الحاج: "التّفلسف عملٌ وجدانيّ لصيق بآدميّتنا، كلّ واحدٍ منّا هو فيلسوف بالقوّة إن لم يكن بالفعل، كلّ واحدٍ

منّا فيلسوف على قدّه... عندما نتصفّح تواريخ الأدب الكبير، والفلسفة الكبيرة نرى بما لا يقبل الرّيب، أنّ أكابر الفلاسفة أدباء مثلما أنّ الأدباء الكبار فلاسفة أيضًا".

يرفض البعلبكي هذا التّعريف للفلسفة لأنّه يُدخل الأدباء والعلماء والمفكّرين في دائرة الفلاسفة. فيكون فؤاد إفرام البستاني والأخطل الصّغير والياس أبو شبكة وإيليّا أبو ماضي وجبران خليل جبران وأمين الرّيحاني ومي زياد ومارون عبّود وسعيد عقل وميخائيل نعيمة الّذي رفض أن يُقال عنه إنّه فيلسوف، وغيرهم العشرات من الأدباء اللبنانيّين يكون هؤلاء كلّهم فلاسفة كبارًا، ذاك لأنّهم كلّهم سعَوا إلى حقيقة، وعالجوا الهمّ الإنسانيّ بجوانبه المختلفة، وكان لهم رأي واضح وجريء في كلّ مسألة.

والحقّ عنده، أي عند الدّكتور البعلبكي، أنّه لا بدّ من الفصل بين الفلسفة والأدب. كلّ له مجاله ومنهجه. والفلسفة كما يراها ليست مجرّد سعي إلى الحقيقة كيفما اتّفق لكنّها منهجٌ عقلانيّ علميّ في البحث عن حقيقة. إنّها منهج نقد وتحليل يعتمد العقل المنضبط بقوانين الواقع ونتائج التّجربة الحسّيّة. من أهمّ صفات هذا المنهج الموضوعيّة والشّمول. وهي مضمون ما نتوصّل إليه بهذا المنهج من نتائج موضوعيّة وأحكام تقويميّة شاملة. لذلك ليس للفلسفة موضوعٌ محدّد بل منهج محدّد ودور محدّد. مواضيع العلوم وهموم الوجدان والمجتمع كلّها مواضيع فلسفيّة، العبرة في المنهج العقلانيّ العلميّ المحلّل والنّاقد وفي انضباط العقل بشروط هذه العلميّة.

وهنا تبرز العلاقة الوثيقة بين العلم والفلسفة. فإذا كان العلم بحثًا عن الحقيقة، فهو من هذه النّاحية فلسفة بمعناها اللّغويّ، لأنّ جوهر الفلسفة هو البحث. غير أنّ دور العلم هو تقرير ما يكتشفه في الواقع بالتّجربة من حقيقة الموجودات الجزئيّة. أمّا الفلسفة فدورها مراقبة مناهج العلوم وتحليل تقاريرها، وتصحيح مسارها وطرح المسائل عليها انطلاقًا من الواقع ومن معطيات التّجربة.

ولما كان هدف العلوم اكتشاف الحقائق وتحقيق المنفعة المادّيّة والمعنويّة فالفلسفة تكون هذه العلوم، فهي تبحث في الموجود من حيث هو موجود ومن حيث وجوه انوجاده المختلفة، وتحاول الوصول إلى الحدود المشتركة، وإلى المفاهيم العامّة والقوانين اليقينيّة والأحكام الصّادقة. ولذلك فإنّ الفارق بين العالم والفيلسوف وهميّ كالفارق بين العلم والفلسفة.

وهكذا يكون الباحث عن الحقيقة الطّبّيّة وعن القوانين الّتي تتحرّك من ضمنها الأجساد البشريّة هو عالم فيلسوف. أمّا الطّبيب الّذي يمارس مهنة الطّبّ فهو التقنيّ الّذي يطبّق القانون العلميّ الّذي اكتشفه الطبيب الفيلسوف. وهكذا المهندس والكيميائيّ وعالم الرّياضيّات والفيزيائيّ والموسيقيّ وأمثالهم من ذوي الاختصاصات العلميّة، إنّهم تقنيّون وحسب وليسوا بفلاسفة علماء.

يتّفق رأي البعلبكي هذا مع تيّار الوضعيّة المنطقيّة الّذي يشدّد أصحابه على دور الفلسفة باعتبارها منهجًا للنّظر العلميّ يرسم للباحث خطواته في البحث. ويتّفق أيضًا مع زكي نجيب محمود في موقفه من الميتافيزيقا. فالفلسفة برأي البعلبكي ليست ميتافيزيقا، فهي قد تبحث في ماهيّة الميتافيزيقا وفي جدواها وتنقد منهجها وأحكامها، ولكنّها ليست فيزياء أو كيمياء ولا اقتصاد ولا سياسة ولا أخلاق ولا غيرها، بل تبحث في هذه كلّها وتنقد طرق العلماء فيها وما يقولونه عنها. فالفلسفة منهجٌ ونقدٌ وتحليل. والفيلسوف هو المحلّل والنّاقد قبل كلّ شيء. إنّما المحلّل والنّاقد بمقياس موضوعيّ قادر على الفصل بين صدق الأحكام وكذبها، وبين الوهم في الرّؤية والواقع، وبين وجدانيّة المواقف وعلميّتها.

أختم بنصٍّ من كتاب الدّكتور البعلبكي يحدّد فيه دور المجتمع وأهمّيّة الحرّيّة والتّجربة في تعزيز عمل الفيلسوف لا بل في وجوده. يقول:

"الفيلسوف لا يُصنع. إنّه ينبت وينمو تلقائيًّا في جواء عقلانيّة علميّة معاشة. هذه الجواء لا ترتسم بالمصادفة أو بخلق تلقائيّ بل تحضّر بسياسة تربويّة تساعد الإنسان على اكتشاف ذاته العاقل لا على اكتشاف عشيرته، وتساعده على تحقيق ذاته لا على تحقيق مصالح القبيلة، ثمّ بسياسة تعليميّة لا تعتمد التّلقين والدّغماطة نهجًا، ولا تسويق الأفكار المعلّبة مضمونًا. إنّ تنمية العقل بالعلميّة التّجريبيّة وبإنماء روح التّحليل والنّقد والأحكام الموضوعيّة ذاك هو المسار وتلك هي الطّريق إلى أمّة مثقّفة ثقافة فلسفيّة، أو مثقّفة وكفى".